جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بإيتاي البارود
المجلة العلمية

ملامح التراث والمعاصرة
في رواية "طوق الحمام"

إعداد
د/ سلمى (ZHANG SUSU)
كلية الآداب – جامعة الإسكندرية

(العدد السادس والثلاثون)
(الإصدار الثالث .. أغسطس)
(١٤٤٥هـ - ٢٠٢٣م)

علمية- محكمة- ربع سنوية
الترقيم الدولي: ISSN 2535-177X

ملامح التراث والمعاصرة في رواية "طوق الحمام"

سلمى (ZHANG SUSU)
قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، مصر.
البريد الإلكتروني:salmazhangsus8@gmail.com

الملخص:

رواية "طوق الحمام" تدور حول عالم مدينة "مكة"، إذ تعبر خلالها الروائية "رجاء عالم" عن حبها وشغفها بكل ما يحيط بتلك المدينة العظيمة. واستطاعت الروائية أن تطرح قضايا التراث والمعاصرة، فعرضت قضية اختفاء الكثير من المباني القديمة في مكة، كما رسمت صورة للمظاهر العمرانية الحديثة، الأبراج، والمجمعات التجارية الضخمة، والتصميمات المعمارية الوافدة.

وتتميز الرواية بعنوانها الذي يحمل دلالات عديدة، كما يتناص مع التراث. وكذلك كثرة أسماء الحارات والأزقة، مما يعد تخليداً لمكة القديمة، وتوثيقاً لأحيائها العريقة. كما يحمل شارع (أبو الرؤوس) دوراً مهماً في حركة السرد.

والكثير من السرد في الرواية على لسان "أبو الرؤوس"، ولا يكتفي، بل يشارك بقوة الراوي العليم في تأليف الرسائل الخاصة المتبادلة بين ساكنيه.

"أبو الرؤوس"، شاهد وراوٍ، ليس فقط للسكان لتسجيل انطباعاتهم، وهو ينهل من الماضي ليسقي عطش الحاضر توقًا لمستقبل يليق بالمدينة العريقة. وينظر الراوي بعين حزينة تئن وجعًا على ما يصيب مدينته.

وقد لجأت "رجاء عالم" إلى تقنية الرسائل "العادية والإلكترونية" لتطوير أحداث الرواية، والوقوف على آراء وطبائع شخصيتين من شخصيات الرواية، واحتلت تلك الرسائل جزءاً كبيراً جداً من الرواية، ويمكن اعتبارها أكثر الخطابات السردية حضوراً حتى إنها تضاهي حضور الراوي. لقد حاولت الروائية استخدام العجائبي، وأسلوب المذكرات، واللغة الرمزية والمشهدية والحبكة البوليسية.

كما تلجأ الكاتبة إلى استخدام لغة اليوميات والرسائل، أو الوثيقة التاريخية التي تتحدث عن تاريخ مكة القديم. أو استخدام التصوير المشهدي، الذي يحمل في كل مقطع من الرواية عنوانًا محوريًا خاصًا به. وكذلك الانتقال بين أمكنة وأزمنة مختلفة تحاول الروائية أن تجعل القارئ ينتقل خلالها بين مستويات السرد وعوالمه المختلفة.

الكلمات المفتاحية: مكة المكرمة– التراث– المعاصرة– طوق الحمام – أبو الرؤوس.

Tradition and Contemporary Features in the Novel "The Collar of the Pigeon"

Salma (Zhang Susu)
Department of Arabic Language and Literature, Faculty of Arts, Alexandria University, Egypt.
Email: salmazhangsus8@gmail.com

Abstract:
The novel "Tawq al-Hamam" revolves around the world of the city of "Mecca", during which the novelist "Rajaa Alem" expresses her love and passion for everything that surrounds that great city. The novelist was able to raise issues of heritage and contemporary, so she presented the issue of the disappearance of many ancient buildings in Makkah, and also painted a picture of modern urban manifestations, towers, huge commercial complexes, and incoming architectural designs.
The novel is distinguished by its title, which carries many connotations, as well as the heritage. As well as the many names of lanes and alleys, which is a perpetuation of the old Mecca, and documentation of its ancient neighborhoods. Abu Al-Raus Street also plays an important role in the narrative movement.
And much of the narration in the novel is on the tongue of "Abu Al-Ras", and he is not content with it, but rather participates with the strength of the knowledgeable narrator in composing the private messages exchanged between his residents.
"Abu Al-Raus" is a witness and narrator, not only for the residents to record their impressions, but he draws from the past to quench the thirst of the present, yearning for a future worthy of the ancient city. The narrator looks with a sad eye, groaning in pain, at what befalls his city.
Raja Alem has resorted to the technique of "regular and electronic" messages to develop the events of the novel, and

to find out the opinions and natures of two of the characters in the novel. The novelist tried to use the miraculous, the diary style, the symbolic language, the scene, and the detective plot.

The writer also resorts to using the language of diaries and letters, or the historical document that talks about the ancient history of Mecca. Or the use of landscape photography, which in each section of the novel carries its own pivotal title. As well as the transition between different places and times, the novelist tries to make the reader move between the different levels and worlds of the narration.

Keywords: Makkah Al-Mukarramah, Heritage, Contemporary, Touq Al-Hamam, Abu Al-Rus.

رواية طوق الحمام لـ "رجاء العالم":

رواية "طوق الحمام" هي رواية اجتماعية وتاريخية. وأحداث هذه القصة تجري في مكة المكرمة. حيث تكمن القيم الدينية، والإنسانية، والاجتماعية، والأساطير في جوف القصة.

وتتناول هذه القصة هجمات البنايات الجديدة على النسيج التاريخي لمكة، ويتم تقديم هذه القصة بشخصيات مختلفة. ومن أهم شخصياتها زقاق اسمه "أبو الرؤوس" الذي تدور كل الأحداث فيه، ويلعب هذا الزقاق دورًا رئيسًا في الرواية.

وإن امتداد رواية "طوق الحمام" بطول ٥٦٦ صفحة يجعلها رواية مركبة، إضافة للتجمعات الإبداعية للفنون المتنوعة التي تجمع بين الأدب، والتاريخ، والعلم. بالإضافة إلى الفنون الأخرى ذات الصلة ، مثل علم الآثار، والتراث، والأساطير، والخرافات، إلخ.

ويركز الجزء الأول من الرواية بشكل كبير على المدينة بمعالمها، وتاريخها، ودينها، وأساطيرها، وطقوسها.

أما الجزء الثاني فيأخذ القارئ إلى أماكن أخرى في المملكة العربية السعودية وخارجها. بينما ينتقل السرد بين الماضي، والحاضر في محاولة لتضخيم، وإثراء القضايا الرئيسة التي أثيرت في النصف الأول من الكتاب، ويتم تغطية الجزأين من خلال شخصيات من مختلف الأجناس، والأعمار، والخلفيات، والجنسيات، والفترات التاريخية. والذين يساهمون جميعًا في نسج الإطار المكاني، والزماني الشاسع للرواية.

وهؤلاء الرواة يقدمون وجهات نظرهم من خلال وسائط متنوعة، مثل الرسائل، والقصص، والمقالات، والصور، والاعترافات، والأحلام، والمونولوج الداخلي، وآثار الماضي، ومجموعة من الطقوس؛ معًا، تخلق لمكة المكرمة صورة حية ومتينة، بشعبها، ومناظرها الطبيعية، وتراثها التاريخي والثقافي.

ومن خلال هذه الرواية، تؤرخ "المؤلفة" للأجيال القادمة مكانًا، يتم فيه محو بعض معالم التراث الفريد، والنابض بالحياة سريعًا بسبب الحداثة، والتغيير.

الكاتبة رجاء عالم:

رجاء محمد عالم هي روائية سعودية، حصلت على ليسانس الآداب تخصص اللغة الإنجليزية، حيث تخرجت في جامعة الملك عبد العزيز بجدة، وذلك عام ١٩٨٠، وبدأت حياتها المهنية ككاتبة في صفحة "حروف وأفكار" في جريدة "الرياض"، وكذلك كانت تكتب في الملحق الأسبوعي لنفس الصحيفة.

وتعدُّ من أهم الكاتبات العربيات، والتي تنتمي إلى الجيل الأخير من الروائيات السعوديات منذ ظهور الرواية السعودية في النصف الثاني من القرن ٢٠، وتتميز أعمالها بالرمزية الصوفية.

وفي عام ١٩٨٦ ، حصلت على ميدالية الشرف في مسابقة ابن طفيل، والتي نظمها المعهد العربي من أصل الإسباني في مدريد عن كتابها "أربعة أصفار"، وقد فازت بجائزة الإبداع العربي لعام ٢٠٠٧.

وقد نالت جائزة الرواية العربية (البوكر) لعام ٢٠١١م، وذلك عن روايتها "طوق الحمام"، كما أنها تعد أول كاتبة من الدول العربية تفوز بهذه الجائزة. وقد ترجمت بعض روايتها إلى اللغة الإنجليزية والإسبانية.

وقد نُشر لها عدة مسرحيات، وثلاث روايات، ومجموعة قصصية، وحازت على العديد من الجوائز العالمية المرموقة[١].

---

(١) أهم مؤلفات الروائية رجاء عالم:

- الرقص على سن الشوكة، رواية، ١٩٨٧م.
- ثقوب في الظهر، مسرحية، ١٩٨٧م.
- الموت الأخير للممثل، نص مسرحي، ١٩٨٧م.

=

رجاء عالم مؤلفة نثرية نشطة، يمزج أسلوبها بين الأساليب الحديثة، والموضوعات التقليدية، مما دفع بعض النقاد لوصفها بأنها فريدة الأسلوب حيث قالوا إنها فريدة من نوعها بين الكاتبات السعوديات الأخريات(١).

وقد كُتب عن أعمالها الأدبية كتابات نقدية عديدة، وقدمت أوراق نقدية متميزة(٢).

=

- نهر الحيوان، قصص، ١٩٩٤م.
- طريق الحرير، رواية، ١٩٩٥م.
- مسرى يا رقيب (بالاشتراك مع شادية عالم)، رواية، ١٩٩٧م.
- سيدي وحدانه، رواية، ١٩٩٨م.
- حبي، رواية، ٢٠٠٠م.
- موقد الطير، رواية، ٢٠٠٢م.
- سِتر، رواية، ٢٠٠٥م.
- خاتم، رواية، ٢٠٠٧م.
- طوق الحمام، رواية، ٢٠١٠م.
- أربعة – صفر، رواية، ١٩٩٤م.

(١) النعيرية، اليوم – (٢٠١٢-٠١-٠٥). "رجاء عالم رائدة في الأدب المعاصر وعاشقة للبيئة المكية". alyaum.

- ما ورد في كتابات الدكتور "علي القرشي" ومنها ما ورد في كتابه "نص المرأة"، وكتابه "حكي اللغة" و"نص الكتابة" وبحوث المؤتمر الثاني للأدباء السعوديين.
- وصدرت رؤية نقدية تسمى "النص" بها مقاربات حول بنية الشكل، وأبعاد الموقف عند رجاء عالم (سيدي وحدانه نموذجاً).
- كتاب الرواية النسائية السعودية/ سامي جريدي.
- كتاب شعرية الفضاء في رواية طوق الحمام: زهراء عبد الله آل سلام.
- كتاب اللون في الرواية السعودية للدكتورة مريم غبان.

=

العنـوان:

"**طـوق الحمـام**" هـو العنـوان الـرئيس للروايـة، واسـمها يشـير إلـى هويـة الكتاب، وهوية الكاتبة وشخصيتها، وإلى الأفكار التي تريد نقلها من خلالها.

فشفرات عنوان رواية " طوق الحمام" تحيل إلى عنوان تراثي في الأدب العربي هو" طوق الحمامة في الألفة والألاف لابن حزم الأندلسي" وهذا ما يدعو إلى كشف تناص تراثي عربي.

والكاتبة "رجاء العالم" تصرح في آخر روايتها بصورة مباشرة، وغير مباشرة بعلاقة العنوان برواية "طوق الحمامة في الألفة والألاف" لابن حزم الأندلسي **حيث تقول: «لقد عثرت على هذا التخطيط في كتاب طوق الحمامة** هذا، آخر ما كان يقرأه الشيبي قبل مغادرته»(١).

=

- كتاب لفاطمة فيصل العتيبي.
- رسالة ماجستير لمعجب العدواني بعنوان: التناصية في رواية طريق الحرير.
- فصل في كتاب: "التشكيل البصري في الرواية العربية" للدكتورة مريم غبان. بعنوان (التشكيل التجريدي في رواية مسرى يارقيب)
- كتاب للناقد الدكتور/ حسن النعمي.
- ماورد في موسوعة "مكة المكرمة" "الجلال والجمال" . الجزء الثاني أكثر من بحث للدكتور "علي القرشي"، والدكتور "أحمد جاسم الحسين"، والأستاذة "نورة المري".
- "سيرة مكان ممكنة" للناقدة جميلة العبد الله حول رواية "طوق الحمام".
- بحث للشاعر الدكتور "عزت محمود علي الدين" بعنوان: الخطاب الروائي ومضمراته.
- رسالة ماجستير لخالد الهذال بعنوان: "ازدواج الشخصية في رواية خاتم"..

(١) رجاء عالم، طوق الحمام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط ٤، ٢٠٢٢م، ص٥٠٧.

العمق الفلسفي للعنوان:

تنطلق "رجاء العالم" من تفسير عنوان (طوق الحمامة) لابن حزم لتضمينه في عنوان روايتها طوق الحمام، حيث أن كتاب ابن حزم كان تفسيرًا لفلسفة الحب التي انطلق منها ابن حزم، «فإذا بهذا الحب هو الذي يشكل المساحة الأكثر عمقًا في العمق الروائي، وفي العمق السردي الذي حاولت رجاء العالم أن تنهض منه، مؤمنة بأن الحب مفتاح للوجود ..... وهنا تأخذ الفلسفة أسرارها، وعمقها كحالة تأويلية، لعنوان "رجاء العالم" الذي لم يكتف فقط بحالة التناص، كسحب عنوان إلى عنوان من حيز كتابي إلى حيز كتابي آخر، بقدر ما قامت بسحب المحمول الفلسفي، والإنساني للعنوان معه إلى محمول فلسفي، وإنساني في حيزٍ محيطهُ الزمني غير ذلك المحيط، لكنه ما يزال يُحتفي بالمكان المقدس الذي يزمن المكان بقدسيته ومطلقيته، وبالتالي تمكين الزمن في قدسية المكان لتنهض رؤياها إلى رؤى أعمق في البحث عن طوق الحمام، طوق الإنسانية، طوق الحب، طوق الحياة، طوق النجاة، طوق الخلود والانعتاق من مادية الوجود الفاني، والتمسك بروحانيته الباقية الخالدة»[١].

الملامح التراثية في الرواية

التراث العربي: ويعني ما تركه السَلف العرب، من إرث عقائدي، وعلوم، وثقافة، ومعارف، إضافة للأعراف والتقاليد، والتجارب والخبرات، وآثارٍ وفنون، ومن أبرز أنواعه، التراث الفكري الذي يحوي جميع الآثار المكتوبة التي وصلت إلى هذا العصر، فأصبحت كلمة التراث تشير إلى الموروث الذي تناقلته الأجيال السابقة خلال السنين الماضية من الحضارة الإسلامية، التي تعد من أطول

(١) بهيجة مصري إدلبي، العتبات النصية في الرواية النسائية السعودية، مجلة الكلمة، العدد ٦٩، يناير ٢٠١٣م.

الحضارات عمرًا في التاريخ الإنساني، وأكبر ديانات العالم في شبه الجزيرة العربية، وقد كان السابقون ينظرون لموروث من سبقهم على أنه امتداد من خلالهم، للغة والمفاهيم والمبادئ العامة(١).

إن مكة المكرمة، هي المكان الرئيس الذي تدور فيه قصة رواية "طوق الحمام"، وهي أيضًا المكان من بداية القصة إلى نهايتها، وهي أهم مكان في الرواية، وهي الركيزة في العمل الروائي.

وتكشف المؤلفة في روايتها التاريخ الاجتماعي، والإنساني للمملكة العربية السعودية، معبرة عن شغفها بكل ما يحيط بالمدينة، فتبحث في جميع أنحاءها عن الغيب، وكأنها رحلة إلى أعماق الإنسان الدفينة. وهكذا ربطت بين الواقعي والمتخيل في الإعراب عن مخاوفها على المدينة(٢).

إن مكة تُعد مكانًا فريدًا، لأنها المدينة المقدسة، وهي المكان الذي تَسرد فيه الروائية أحداثها.

وتأسف رجاء العالم بشدة لأن مكة التي عرفتها في طفولتها قد عانت من الكثير من التغيير، ومن ذلك قولها: "لقد تغيرت كثيرًا بعد الستينيات ... تغيرت بشكل جذري".

وتشعر الكاتبة بالحزن بشكل خاص لرؤية أصالة مكة تغمرها قوى حديثة غريبة عنها: «كانت أصلية، وجميلة، ولا ينبغي تدميرها. إنها مثل الوقت ضد الحداثة القاسية، لكننا نتحرك نحو هذا الزجاج والفولاذ ... هذا هو قلقي»(٣).

---

(1) https://mawdoo3.com/ محمد مناصير، تعريف التراث العربي

(2) wikipedia.org.

(3) Buali, "Home and Belonging: Interview with Raja Alem", Arab News, 10 Aug. 2011.

الأزقة والحارات: (أبو الرؤوس)

يعتبر زقاق أبو الرؤوس من الأماكن الرئيسة، والمفتوحة في رواية "طوق الحمام"، وأيضًا يعتبر مسرحًا للشخصيات في ذهابها وإيابها. كمسرح تلعب على خشبته الشخصيات أدوارها كما يمكننا أيضًا اعتباره هو الآخر البطل في هذا العمل الروائي، وقد كثر ذكره، وتوظيفه في الرواية.

إن هذا المكان الذي يتميز بأنه حي فقير قديم، حيث قُتلت فيه فتاة اسمها عزة، يبدو فيما بعد أنها لم تمت، واتخذت هوية فتاة أخرى، لتخلق حالة من التشويق وتزيد من غرابة هذا العالم ومفارقاته مما يجعل المحقق ناصر غير قادر على حل لغز تلك الجريمة.

ولا يختلف عالم شارع أبو الرؤوس المتشابك والغريب عن مدينة مكة، حيث يتشابك منظر المدينة القديم، مع تلك المعاملات العقارية عبر الإنترنت، وأبراج العقارات الحديثة للتجار.

مسميات الأزقة والحارات:

إن كثرة أسماء الحارات والأزقة في (طوق الحمام) بشكل كبير، يدفع إلى الاعتقاد أن هذا يُعد تخليداً لمكة القديمة، وتوثيقاً لأحيائها العريقة التي تلاشى بعضها ولم يعد له وجود.

"حي المسفلة" و"حي الشبيكة" و"القشاشية" و"أم الجود" و"القرارة" و"الشامية"، "السليمانية" و"البخارية"، و"حارة الباب" و"حي أجياد" و"الحفائر" ...

وكلها حارات أوردت ذكرها الكاتبة. وربطت بعضها بالجمال والرقي كشارع القشاشية المعروف بطابعه العمراني الأصيل، والذي كان من «أهم شوارع مكة وأكثر أهل مكة تأنقاً»[1]. وشارع المنصور «والذي كانوا يسمونه في ماضي مكة

(١) رجاء عالم، طوق الحمام، مصدر سابق، ص ٢٣٧.

(الأقحوانة) حيث تتوّج في النصف الأول من القرن العشرين بصفته شارع عروض الموضة «مثل حدائق الهايدبارك بلندن والسنترال بارك بنيويورك والشانزليزيه بباريس، يقصده أهل مكة عصر كل يوم للنزهة، ويتنافسون في التألق بالأردية والأكسية الزاهية اللامعة كقوس قزح والتي تكسف زينة الحكام الأتراك»[١].

ونجد في الرواية **وصفاً للأحياء القديمة**، قد يكون طويلاً أو قصيراً، «فتصف دروبها بالتعرج وأزقتها بالضيق، وبيوتها المبنية بالحجر وأبوابها ورواشنها المصنوع من خشب الساج. في إشارة ذكية منها أن هذه الحارات القديمة لم تكن بعيدة عن الذوق، بل كانت ساحرة وأخاذة، وأنها بمكوناتها المأخوذة من الطبيعة أقرب إلى الإنسان، ومنسجمة مع راحته ومناخ بيئته»[٢].

كما أشارت الكاتبة إلى **المقاهي الشعبية** المنتشرة في الأزقة والحارات، والتي تعكس قيماً ثقافية واجتماعية؛ كالتآلف والمودة بين أهل الحارة، الذين يقصدون المقاهي طلباً للراحة والمتعة في جلسات أشبه بالجلسات العائلية، يتبادلون فيها الأخبار، ويتجاذبون فيها أطراف الحديث.

التراث الاجتماعي في الرواية:

١ – العادات والتقاليد:

لقد رسمت الكاتبة العديد من عادات وتقاليد المجتمع المكي، ومجتمعات بعض مدن المملكة السعودية كالطائف، وجدة منذ العصور القديمة وحتى الزمن الحالي.

(١) المصدر السابق، ص ٢١٨.

(٢) إيمان جريدان، هوية المكان وتحولاته، مرجع سابق، ص ٦٧.

ومن التقاليد التي تناقلها أهل مكة من عهد النبي (صلى الله عليه وسلم) **طقوس خاصة في دفن ووداع موتاهم**، خاصة ما يتعلق بالجنسين وبالأعمار، وقد ورد في الرواية:

«راقبنا كل جنائز مكة. نتبارى في تمييز الموتى نميز جنائز الشيوخ بغطائها المحايد عن جنائز الشبان بغطائها الأخضر، وجنائز الأطفال بغطائها المزركش، والأقفاص على جنائز النساء، والتي حدثنا جدنا عنها»(١).

ومن عادات المكّيين قديماً **تأجير بيوتهم للحجيج**، وقد ندرت هذه العادة حالياً، لانتشار الفنادق في مكة بشكل كبير جداً:

«كانت مكة واقعة في سحر "نوري المليح"، ترقب أدق تحركاته، وكان في كل موسم حج يلملم شجرة عائلته بكامل أوراقها، ليزرعها على الأسطح، بينما يؤجر قلعته للحجيج ليتبطّل بأجرتها طوال العام»(٢).

ومن العادات الطريفة، والتي تلجأ إليها الأمهات لتأديب الأولاد وتخويفهم: **(أبو براقع)** حيث ترتدي واحدة من نساء الحي قناعاً بشعاً وتخوف به الأبناء، فقد ورد في الرواية.

«أدوار تلك المسرحية موزعة بإتقان بين أمي وجدتي وعمتي حليمة، يتركن خلالها شظية من قلوبنا يقتطعها أبو براقع لضمان تروضينا»(٣).

وهذه **العادة التربوية الطريفة** وسيلة لترويض الأبناء، وفي واقع الأمر فإن تخويف الصغار بخرافة ما موجود عند كل شعوب العالم.

(١) رجاء عالم، طوق الحمام، مصدر سابق، ص ١٨٠، ١٨١.

(٢) رجاء عالم، طوق الحمام، مصدر سابق، ص ٩٣.

(٣) المصدر السابق، ص ٩٧، ٩٨.

٢- الأكلات الشعبية:

نلاحظ أن "رجاء العالم" في نصها (طوق الحمام)، قد ذكرت الكثير من الأكلات التقليدية المكية. ومن ذلك: حين يتذكر يوسف لمحة من طفولته، ويهيج في نفسه «جوع لا لشيء إلا لعزة التي تسلم كل حواسها لروائح سوق الصغير، تندفع إلى حوانيت الكباب "الميرو" لتظفر بكرة من اللحم المخلوط بالدخن، ولا يبخل عليهم بائع اللقيمات بعجائنه المقلية والمغرقة بمعقود السكر أو الفلفل، يقفان يرقبان جرة الفول المدمس، بالسمن البلدي، ويد الهاون الخشبي تهرس بتناغم المعصوب من لب البر ولعاب النحل أو الموز في الجرار الضخمة، ومن هنا تنتهي بهم حليمة بحانوت (أبو الرأس) أفضل من يحضر رؤوس الخرفان بمكة»[١].

في موضع آخر، تكتب عائشة رسالة إلى زوجها الألماني:

«يوماً ما سأطهو لك (العيش باللحم). صعب هذا الطبق. ولكم أكل من نهارات أمي»[٢].

وتواصل عائشة وصفها لطبق (العيش باللحم) قائلة:

«لا تندهش من كمية الكراث، هذا الأخضر الذي يحمي الدم، أتعرفه؟ من فصيلة البصل الأخضر، لقد فصدت جدّاتنا حدّته بمفروم اللحم والطحينة وبرودة العجين»[٣].

٣- الأزياء المحلية:

لقد عُرف الخليجيون بأزياء تميّزهم عن باقي الدول الغربية، والعربية الأخرى.

(١) السابق، ص ٧٧.

(٢) رجاء عالم، طوق الحمام، مصدر سابق، ص ٢٥٦.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٦٥.

إن الأزياء الخليجية وإن بدت ظاهراً متشابهة، إلا أنها تستخدم للتمييز بين طبقات المجتمع، إذ إن أزياء الأمراء غير أزياء الأفراد العاديين.

وقد ورد في الرواية أن الكهربائي الباكستاني بمجرد أن ركب سيارة أجرة تجمد الدم في عروقه – حسب وصف الكاتبة له– عندما مرت عينه «على ثوب خليل الحرير المشغول، والغترة الناصعة من تصميم لومار. متوّجة بالعقال الأسود الفاخر، يكسوه المشلح الرمادي المطرز بخيوط القصب»[١]. وعرف الكهربائي مباشرة أن ما يرتديه خليل هو زي الأمراء، واستغرب أن يسوق أمير سيارة أجرة:

– «إكس كيوزمي سير، هذا تاكسي؟»[٢].

– «أنت في Joke؟ إكس كيوز مي سير، أنت some some في أمير سعودي ...»[٣].

قضايا المعاصرة في الرواية

المظاهر العمرانية

١ – الأبـــراج:

من الأماكن المركزية الأبراج «وليس غير الأبراج الناشبة في لحمة الجبال البركانية العارية، لا أعرف كيف تلتقط مكة أنفاسها»[٤].

«لا تركل النعمة، أبلغ قرارها، ثم استجر وقل: قطران. لم يشعر بالارتياح لنخر أسئلة حليمة، وفي محاولة لتشتيتها أشار إلى كومة الأبراج البيضاء التي

(١) السابق، ص ٥٧.

(٢) السابق، ص ٥٦.

(٣) السابق، ص ٥٧.

(٤) رجاء عالم، طوق الحمام، مصدر سابق، ص١٥٦.

لاحت عن يمين، هذه أبراج السيف، أربعة وأربعون برجًا، متكتلة كمراكب فضائية مشتعلة بالأنوار، منتصبة مكان قمم جبل الدابة وقلعته»[١].

إن ذلك التوصيف لهذه المباني العملاقة تقدمها المؤلفة كرمز للحداثة. وما بعد الحداثة، على أنها هياكل معدنية تصور الوحشية المدنية غير الجمالية.

«سبعة عشر عملاقًا عن يمين، ومثلها عن يسار، تلتقى في الصدر عند صنم جبار أشبه بالإمبايرستيت بنموذج مصغر عن يمين ويسار.. يليها طوق آخر من ناطحات السحاب، سبع عن يمين، ومثلها عن شمال تلتقي في الصدر»[٢].

ومن خلال وصف الأبراج في الرواية، نرى أن مكة التاريخية سرعان ما بدأت تتطور تجاريًا، وبدأت في التحديث من خلال الصراع بين التراث والمعاصرة، الذي أصبح أكثر وضوحًا، وذلك عندما تم بناء ناطحات السحاب في مكة، وعلى الجانب الآخر يعكس ذلك حماية "رجاء العالم" للآثار التاريخية لمكة المكرمة، ويدعو إلى حماية التراث التاريخ لمكة المكرمة.

كما تدعونا الكاتبة إلى الحفاظ على تراث مكة المفقود، والذي يعكس من الجانب الصراع بين التراث والمعاصرة.

وبينما تجري الأحداث في الرواية في عوالم حقيقية، وافتراضية، يلعب وصف عالم الإنترنت، والأماكن، وتعريفاتها دورًا مهمًا على المستويات الدلالية، والرمزية. حيث تصف المؤلفة العديد من أنواع المواقع المختلفة في الرواية، بما في ذلك الأماكن الدينية التاريخية، والأماكن الاجتماعية، والأماكن الثقافية لأن

(١) المصدر السابق، ص٢٩٥.

(٢) السابق، ص٥٩٩.

هذه الأنواع المختلفة من الأماكن لها معاني مختلفة، وتلعب أدوارًا مختلفة في تطوير الأحداث المتصارعة، وذلك بمقارنة الأنواع، والمواقع حين نجد تضاربًا بين التقليد، والحداثة في الرواية.

٢- المعمار الحديث:

ونلاحظ المقاطع السردية الكثيرة، التي ضمّنتها الكاتبة إحساسها بالتغير في المدينة، وتأملاتها في المعمار التراثي والحديث.

هذه الأحياء الجديدة تفتقر إلى الصلابة، لأنها لم تُبْن من طبيعة المكان، من حجارته وخشبه وطينه. وبالتالي فهي أمكنة بلا روح، تُشعر الإنسان بالغربة لبعدها عن الحرم، وبالوحشة والانقسام عن التراث والذاكرة.

تصف الكاتبة حي الزاهر، وهو من الأحياء الحديثة، التي نشأت بعد طفرة النفط تقول:

«ورغم حداثته فلقد تآكل، وتوزعت المباني تحت الإنشاء هنا وهناك وما بينها وحشة وعزلة، حي لا يستحق نظرة أخرى، كل مبانيه متناسخة وخارجة من رأس بلا مخيلة، بنوافذها الضيقة، كل صف عمودي منها، محصور في إطار أسمنتي يمتد من أعلى البناء لأسفله، من ثلاثة لأربعة صفوف تغطي واجهة كل عمارة، وتغطيها تعريقات الألمنيوم المُذَهّب.

الشارع أشبه بجثة تنفخ بخارًا، بلا قدم تحييها فقط صف من العربات على الجانبين لركاب أشباح لا يظهرون لعين»[١].

فهذه الأحياء تفتقد إلى البهاء كما تفتقد إلى الإنسانية، إذ تشعر الإنسان بالعزلة والوحدة، بعيداً عن علاقات الجوار والحميمية، والتي نجدها في الأحياء الشعبية.

(١) رجاء عالم، طوق الحمام، مصدر سابق، ص ١٧١.

وقد تحدث "عبد الله الغذامي" طويلاً عن الأحياء العصرية، التي أحدثت انفصاماً كبيراً بين الإنسان والمكان، وأدخلته في دوامة عن الإحساس بالضآلة والوحشة، حيث لا يوجد سوى صرير السيارات، ورطانة المطاط في أحياء فسيحة ومعبّدة ومزيّنة بالإعلانات وناطحات الغمام، وذلك يعود حسب رأيه إلى التنمية التي طالت المكان أكثر منها الإنسان، فانتُزع منها البُعد الإنساني، وصارت أبنية بلا روح(١).

ويقول "إدوارد سعيد" واصفاً الإحساس الرهيب، الذي يشعر به ساكنو الأحياء العصرية، ذات البنايات الضخمة والشاهقة: «لقد حولتني ضخامة نيويورك الهائلة، وبناياتها الشاهقة الصامتة والمغلقة إلى ذرة تافهة، فأخذت أتساءل عن موضعي من هذا كله»(٢).

وعلى ذلك فهناك من أهل مكة من يعتقدون أن هذه الأحياء ذات العمائر الحديثة قد تكون صحيحة في الهندسة، لكنها خطأ في الحياة.

و"رجاء العالم" لم تتوقف عند حد التصميمات المعمارية الوافدة، «بل تعدته إلى طرح البديل الذي تراه الأقرب والأنسب للحفاظ على ذاكرة المدينة وهويتها وذلك –عندما استحضرت الطراز المعماري الأندلسي– لتطرح ثنائية العطاءات والتقلبات، عطاءات الفردوس المفقود في الطرز المعمارية الخالدة والمبهرة»(٣):

(١) عبد الله الغذامي، حكاية الحداثة في المملكة العربية السعودية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٢٠٠٥م، ص ١٦٩.

(٢) محمد الداهي، صورة الأنا والآخر في السرد، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٣م، ص ٢٨٣.

(٣) إيمان جريدان، العمارة التراثية في الرواية العربية: دراسات تطبيقية، سياقات، إبريل ٢٠٢٠م، ص ٣٥٤.

«تتبعا معي شواهد العمارة الدينية المستقاة من الطراز الإسلامي في عهد المرابطين، هنا في باب المردوم، هنا في كنيسة كريتسودولالوز ... أنظرا البوابات المهيبة وحليات الأسطح، تذكر بروعة العمارة في مراكش وفاس وتلمسان»(١).

فالكاتبة لا تنفي ضرورة التحديث، ومسايرة العصر، ولكنها تدعو إلى حلول تتناسب والبيئة، باستخدام مواد بناء من الطبيعة المحلية، واتباع طرز معمارية عربية وإسلامية على غرار ما هو موجود في الأندلس وفي المغرب العربي، بدلاً من الطرز الغربية. «فالشكل المعماري يجب أن يتقرر تبعاً لاعتبارات روحية وفنية، مناخية واجتماعية، إضافة إلى الاعتبارت الوظيفية والإنشائية»(٢).

كما سلّطت الكاتبة الضوء على ظاهرة **تغيير أسماء الأحياء وتسمية الفنادق** بأسماء أعجمية: كفندق فيرمونت وفندق إنتركونتنتال.

وكذلك فإن تغيير أسماء الأحياء والشوارع والمواقع يحمل رمزية إقصاء ثقافة السكان المحليين، كما ورد في الرواية:

«كتب ملحوظة عن حيلة خلع الأسماء تلك، أبو الرؤوس لدرب النور، وأم الدود لأم الجود في عمليات تجميل للتاريخ. يُدرك ناصر أنه لو أطال البقاء في تلك البقعة – بين دوائر التزوير والترحيل والجوازات والجنسية– لبدأ الدود ينخر في عظامه من المقتلة العظيمة التي تمَّت في هذه البقعة»(٣).

فأسماء الشوارع والأحياء لها تاريخ مرتبط بثقافة سكّانها وذكرياتهم وتاريخهم المحلي، وتغيير أسمائها هو تزييف للتاريخ، واغتيال للموروث.

(١) رجاء عالم، طوق الحمام، مصدر سابق، ص ٤٧٦.

(٢) إيمان جريدان، العمارة التراثية في الرواية العربية، مرجع سابق، ص ٣٥٥.

(٣) رجاء عالم، طوق الحمام، مصدر سابق، ص ١٩٤.

صراع التراث والحضارة:

تبذل "رجاء العالم" في سردها جهدًا صارمًا لإعادة الروابط المقطوعة مع الماضي، من خلال إعادة تمثيل التراث، وإعادة إنشاء الجبال القديمة، وإعادة بناء المنازل الحجرية، والخشبية الأصلية في المدينة ، وبث الحياة في شاغليها المتوفين ، وإحياء ذكرى وجودهم.

وتهدف رجاء العالم إلى إحياء هذا العالم، حيث ترغب في توريث الجيل الحالي لجزء راسخ من تراثهم وهويتهم. وقد شهدت الانهيار السريع لعالم طفولتها، واستبداله بحاضر ألحق الضرر العشوائي بالجسور بين الجيل الجديد من الأفراد السعوديين، وجذورهم، مما جعلهم يعيشون حياة منقسمة، ومنفصلة.

يلعب شارع (أبو الرؤوس) دورًا مهمًا في حركة السرد، فتبدأ القصة بسارد غير عادي، حيث يتحدث الزقاق "أنا أبو الرؤوس برؤوسه المتعددة، أنا الزقاق الصغير"، يقول "من يجرؤ على كتابة زقاق كـ أبو الرؤوس" غيري أنا، أبو الرؤوس نفسه، برؤوسه المتعددة، أنا الزقاق الصغير، بطرف ميقات العمرة بآخر مكة".

«(أبو الرؤوس)!! لماذا حملت هذا الاسم المتعدد والذي يوحي بمناطحة؟! فلقد حدث وفي زمن قبل ظهوري للحياة أن وجدوا في هذه البقعة من أطرافي ميقات العمرة أربعة رؤوس مدفونة لأربعة رجال»[١].

يرتكز طوق الحمام على سرد لراوٍ يعرف كل شيء، يتحدث عن الشخصيات المختلفة التي عاشت معه أو جربته بقدر ما يروي عن نفسه.

(١) رجاء عالم، طوق الحمام، مصدر سابق، ص٩.

«ربما لم أكن زقاقًا طالعًا من عهد جرهم والعماليق، لكنني أتأكد بتاريخ يعبر من سقوط مملكة لقيام مملكة، ومحمل بحروب ودماء وأنا ابن تاريخ هذا القتل»[١].

إن عملية الوصف المتواصل وتسليم دفة الحكي لـ(أبو الرؤوس)، يتمظهر في رؤوسه المتعددة التي تطل على الأمكنة المتعددة الأخرى، مما يجعله في استدعاء دائم. يشاركته في عملية السرد وتفاصيل الوصف، وأثره على الشخصيات التي سكنته.

والكثير من السرد في الرواية على لسان "أبو الرؤوس"، ولا يكتفي، بل يشارك بقوة الراوي العليم في تأليف الرسائل الخاصة المتبادلة بين ساكنيه.

"**أبو الرؤوس**"، **شاهد وراوٍ**، وليس فقط للسكان لتسجيل انطباعاتهم. يجول خلف الأبواب المغلقة، يستمع إلى أسرار الفتيات، ينهل من الماضي ليسقي عطش الحاضر توقًا لمستقبل يليق بالمدينة. ينظر الراوي بعين حزينة تئن وجعًا على ما يصيب مدينته[٢].

أبو الرؤوس ليس مجرد أرض حدث ومكان رواية، هو السارد وذاكرة رجاء المكانية الساكنة في تلافيف دماغها، يتوزع دوره بين السرد، إذ توظفه رجاء ليكون ساردًا حرًا، يأخذ نصيبه من السرد[٣].

---

(١) المصدر السابق، ص٧.

(2)https://www.almayadeen.net/

اطلع عليه بتاريخ ١٦ ديسمبر ٢٠٢٢م.

(3)https://muminalwazan.com/2296

اطلع عليه بتاريخ ٢٥ نوفمبر ٢٠٢٢.

تقنيات السرد

لقد لجأت "رجاء العالم" إلى تقنية الرسائل العادية والإلكترونية لتطوير أحداث الرواية والوقوف على آراء وطبائع شخصيتين من شخصيات الرواية، واحتلت تلك الرسائل جزءاً كبيراً جداً من الرواية، ويمكن اعتبارها أكثر الخطابات السردية حضوراً حتى إنها تضاهي في حضور الراوي(١).

لقد حاولت الروائية استخدام العجائبي، وأسلوب المذكرات، واللغة الرمزية والمشهدية والحبكة البوليسية، مستخدمة التعيين المكاني والزماني في بداية هذا القسم بغية الإيهام بواقعية تلك الأحداث التي تتحرك في فضاء زمني راهن وزمن تاريخي تخييلي، تحاول من خلاله أن تستعيد الوجه الإنساني والحضاري المشرق، للحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، بوصفها البديل المقترح عن الواقع الراهن.

وتلجأ الكاتبة إلى استخدام لغة اليوميات والرسائل، أو الوثيقة التاريخية التي تتحدث عن تاريخ مكة القديم، أو استخدام التصوير المشهدي، الذي يحمل في كل مقطع من الرواية عنوانًا محوريًا خاصًا به، أو التضمين لمقاطع من رواية "نساء عاشقات" في رسائل عائشة إلى حبيبها مما يعدّ خرقاً لسطوة القيم والتقاليد الصارمة في مكان كهذا، كما يكشف عن شعرية العنوان وإحالاته على داخل النص الروائي أيضًا. وكذلك الانتقال بين أمكنة وأزمنة مختلفة تحاول الروائية أن تجعل القارئ ينتقل خلالها بين مستويات السرد وعوالمه المختلفة.

ويتولى الراوي العليم مهمة السرد في الرواية، فهو قادر على الوجود في جميع الأمكنة، ويعرف كل ما يدور أو تفكر فيه شخصيات الرواية، التي تحاول

---

(1)https://www.alkhaleej.ae/

"تداخل الغرائبي بالواقعي في رواية "طوق الحمام"، ٢١ أبريل ٢٠١١، ملاحق الخليج، ملحق الخليج الثقافي.

أن تقيم نوعًا من التداخل والتفاعل بين حكايات العشق المختلفة قديمًا، مثل حكاية عشق ملكة سبأ "بلقيس"، وكتاب الحب لابن حزم، وحالة التعايش والتفاعل التي ميّزت الحضارة العربية في الأندلس، وقصة حب "عائشة" للشاب الذي التقت به أثناء الدراسة. بهدف التأكيد على قيمة الحب العابر للحدود الجغرافية والثقافية، بوصفه قيمة وجودية وإنسانية كبرى(١).

(1)https://majalatalandalus.wordpress.com/2011/03/02/

اطلع عليه بتاريخ ١٧ مارس ٢٠٢٣م.

خاتمة بأهم نتائج البحث

١- إن رواية "طوق الحمام" قد تجاوزت حدود المتعة الأدبية، إلى كتابة حملت على عاتقها توثيق سيرة عمارة مدينة، باسترجاع صور من ماضيها وقراءة حاضرها.

٢- وتعد الرواية وسيلة مهمة للتوثيق التاريخي للإبداع المعماري، وأداة تحفيزية للحفاظ على تراث الأجداد.

٣- أثبتت الكاتبة رجاء العالم أن روايتها قادرة على احتواء عدد من القضايا المهمة، كقضية المحافظة على التراث المعماري الذي خلفته الأجيال السالفة، كما أنها أداة نقدية مهمة للعمارة والعمران.

٤- ظهر في الرواية أن تقاطع الفنون والعلوم وتشابكها وتفاعلها هو أمر حتمي في زمن العولمة والانفتاح على ثقافة الآخر، وأن تداخل الفن الروائي مع الفن المعماري ينتج إبداعاً متميزاً ومتفرداً.

٥- أولت الكاتبة "رجاء العالم" وصف المكان في الرواية أهمية خاصة، وقد تمثل هذا الوصف في وصف "مكة" التي تدور فيها أحداث الرواية.

٦- اهتمت رواية "طوق الحمام" بالمكان من خلال ما قدمته الروائية من لوحات وصفية لمكة المكرمة، والحرم المكي الشريف، وكذلك شارع أبو الرؤوس.

٧- ظهرت صورة مكة القديمة في ذهن الكاتبة حاملة لمعاني غنية ومتعددة، تتشارك بنظام تمثلات وتزاوج داخلها عدة مستويات؛ اجتماعية، ودينية، وثقافية، واقتصادية. وبفضل شبكة من العلاقات المدركة وغير المدركة استطاعت الكاتبة احتواءها داخل إطار روايتها.

٨- نجحت الروائية في عرض صراع التراث والمعاصرة في مكة، فقد عرضت ظاهرة اختفاء الكثير من المباني القديمة، كما رسمت صورة المظاهر العمرانية الحديثة، كالأبراج، والمجمعات التجارية الضخمة، والتصميمات المعمارية الوافدة.

مصادر البحث ومراجعه

١- طوق الحمام، رجاء عالم، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ٢٠١٢م.

٢- إشكالية الأنا والآخر (نماذج روائية عربية)، ماجدة حمود، عالم المعرفة، الكويت، د. ط، ٢٠١٣م.

٣- إيقاع الزمن في الرواية العربية المعاصر، أحمد حمد النعيمي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٤م.

٤- بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، حميد لحميداني، المركز الثقافي العربي، ١٩٩١م.

٥- التراث: قراءة في المفهوم والأهمية، محمد الجابري.

٦- تقنيات السرد بين النظرية والتطبيق، آمنة يوسف، دار الحوار، سوريا، ط١، ١٩٩٧م.

٧- جماليات التشكيل الروائي، دراسة في الملحمة الروائية، محمد صابر عبيد، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد، ط١.

٨- حكاية الحداثة في المملكة العربية السعودية، عبد الله الغذامي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٢٠٠٥م.

٩- دراسات نقدية في الرواية العربية، سحر حسين شريف، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠١١م.

١٠- صورة الأنا والآخر في السرد، محمد الداهي، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٣م.

١١- العتبات النصية في الرواية النسائية السعودية، بهيجة مصري إدلبي، مجلة الكلمة، العدد ٦٩، يناير ٢٠١٣م.

١٢- العمارة التراثية في الرواية العربية: دراسات تطبيقية، إيمان جريدان، سياقات، إبريل ٢٠٢٠م.

١٣- المتخيل السردي، مقاربات نقدية في التناص والرؤى والدلالة، عبد الله إبراهيم، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٠م.
١٤- مخاطر العولمة على الهوية الثقافية، محمد عمارة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ١٩٩٩م.
١٥- النعيرية، اليوم – (٢٠١٢-٠١-٠٥). "رجاء العالم رائدة في الأدب المعاصر وعاشقة للبيئة المكية" alyaum.
١٦- الهوية العربية الإسلامية وإشكاالية العولمة، محمد عابد الجابري، مؤسسة كنوز الرحمة، ط١، ٢٠١١م.
١٧- الهوية والعولمة، محمد مسلم، دار الغرب والنشر للتوزيع، وهران، ٢٠١٢م.
١٨- "اقتباسات رجاء العالم". Abjjad. مؤرشف من الأصل في ٢٨ سبتمبر ٢٠٢١. اطلع عليه بتاريخ ٢٨ سبتمبر ٢٠٢١.
19-Buali, "Home and Belonging: Interview with Raja Alem", Arab News, 10 Aug. 2011.
20-https://www.almayadeen.net/
21-https://muminalwazan.com/2296
22-https://www.alkhaleej.ae/
"تداخل الغرائبي بالواقعي في رواية "طوق الحمام"، ٢١ أبريل ٢٠١١، ملاحق الخليج، ملحق الخليج الثقافي.
23-https://majalatalandalus.wordpress.com/2011/03/02/
24-https://mawdoo3.com/ محمد مناصير، تعريف التراث العربي